﴿قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٧﴾

[الأحزاب: 17]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إتباعُ البيانِ بحجَّته والنَّتيجة بعلَّتها

لَمّا ذكرتِ الآية السّابقة نتيجة الفرار الحتميَّة، وهي إمّا الموت المهلك، وإمّا التَّمتُّعُ القليل ثمَّ الموت المهلك، وكان من شأن المنافقين - حالًا أو مقالًا عند سماع نفي النَّفع - أن يَقولوا: بَلى يَنْفَعُنا؛ لأنّا طالَما رَأَيْنا مَن هَرَبَ، فَسَلِمَ، ومَن ثَبَتَ، فاصْطُلِمَ؛ ناسب أن يأتي الجَوابُ عَنْ هَذا بأنَّه لَنْ يَمْنَعَكم شيء مِنَ اللّه المُحيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ قُدْرَةً وعِلْمًا إنْ أرادَ بِكم سوءًا؛ فَأناخَ بِكم نِقَمَهُ، أو إنْ أرادَ بِكم رَحْمَةً؛ فَأفادَكم نِعَمَهُ[1]، فهذهِ الآيةُ معَ ما قبلها تمثِّلانِ نمطًا من أنماطِ المحاججةِ والمقاولةِ التي تهدفُ إلى بيانِ ضعْفِ عقولِهم وفسادِ تصوُّراتِهم، الَّتي دَفَعَتْهُم للفرارِ طلبًا للنَّجاةِ رغمَ أنَّه لا نجاةَ إلّا باتِّباعِ الحقِّ والسَّمعِ والطاعةِ للّه وما جاءَ به نبيُّه الكريمُ ﷺ .

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَعۡصِمُكُم﴾: (عصم) أَصْلٌ واحِدٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى إمْساكٍ ومَنْعٍ ومُلازَمَةٍ، ومِنْ ذَلِكَ العِصْمَةُ: أنْ يَعْصِمَ اللّه تَعالَى عَبْدَهُ مِنْ سوءٍ يَقَعُ فيهِ، واسْتَعْصَمَ: التَجَأ، وتَقولُ العَرَبُ: أعْصَمْتُ فُلانًا، أيْ: هَيَّأْتُ لَهُ شَيْئًا يَعْتَصِمُ بِما نالَتْهُ يَدُهُ، أيْ: يَلْتَجِئُ، ويَتَمَسَّكُ بِهِ[2]، فالعِصْمة في كَلام العَرَب: المَنْع، واستعصم؛ إذا امْتنع، وأبى[3]،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 312.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عصم).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (عصم).

والمُرادُ بنفي العصمةِ نفيُ القُدرةِ على الامْتناعِ مِن قدرةِ اللّهِ ومِن إيقاعِ قدرِ اللّهِ بهم الَّذي سبقَ في علمِه تقديره لَهم.

2) ﴿أَرَادَ﴾: (رود) مُعْظَمُ بابِهِ يَدُلُّ عَلَى مَجيءٍ وذَهابٍ مِن انْطِلاقٍ في جِهَةٍ واحِدَةٍ، تَقولُ: راوَدْتُهُ عَلَى أنْ يَفْعَلَ كَذا؛ إذا أرَدْتَهُ عَلَى فِعْلِه، والرَّوْدُ: فِعْلُ الرّائِدِ[1]، وأرَدْتُه بكلِ ريدَة، أي: بِكُلِّ نَوْعٍ مِنْ أنواعِ الإرادةِ، وأرادَه عَلَى الشَّيْءِ: كأدارَه، والرَّودُ والرُّؤْدُ: المُهْلَة في الشَّيْءِ، وقالوا: رُوَيْدًا، أي: مَهلًا[2]، والإرادة: المَشيئةُ، وأصلُه الواو، لِقَوْلِك: راوَدَهُ، أي: أرادَه على أن يفعل كَذا[3]، وهيَ منقولةٌ مِن: رادَ يَرودُ؛ إذا سَعَى في طَلَبِ شَيءٍ، فمتى قيلَ: أرادَ اللّهُ كذا؛ فمَعْناه: حَكَمَ فيهِ أنَّهُ كَذا، وليسَ بِكَذا، نحو: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾، والإرادَةُ قد تكون بحسب القوَّة التَّسخيرية والحسّيَّة، كما تكونُ بحسبِ القوَّةِ الاختياريَّة، ولذلك تُسْتَعْمَلُ في الجمادِ، وفي الحيواناتِ نحو: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: 77][4]، والمرادُ في الآيةِ: إنْ حَكَمَ اللّهُ عليكمْ بالسوءِ أو بالرحمةِ؛ فلا رادَّ لحُكْمِهِ وقَضائِهِ.

3) ﴿سُوٓءًا﴾: (سوء) مِنْ بابِ القُبْحِ[5]، وساءَهُ يسوؤُه: فَعَلَ بِهِ ما يَكْرَهُ، نَقيضُ (سَرَّهُ)، والاسْمُ: السّوءُ بالضمِّ[6]، تَقولُ: رَجُلٌ أسْوَأُ، أيْ: قَبيحٌ، وامْرَأةٌ سوْءاءُ، أيْ: قَبيحَةٌ، ولِذَلِكَ سُمّيَتِ السَّيِّئَةُ سَيِّئَةً، وسُمّيَتِ النّارُ سوْءَى، لِقُبْحِ مَنْظَرِها، قالَ اللّه تعالَى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الروم: 10][7]، والمُرادُ بالسّوءِ: كُلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ مِنَ الأمورِ الدُّنْيويَّة، والأُخرَويَّة، ومِنَ الأحوالِ النَّفْسيَّة، والبَدَنيَّة، والخارجيَّة[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بَيَّنَتِ الآيةُ الكريمةُ أنَّ اللّهَ آخذٌ بناصيةِ هؤلاءِ المُكَذِّبينَ الفارّينَ، فَلا وجْهَ يَفِرّونَ إليه؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رود).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (رود).
(3) الجوهري، الصحاح: (رود).
(4) الراغب، مفردات القرآن: (رود).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوء).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (سوأ).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوأ).
(8) الراغب، مفردات القرآن: (سوأ).

إذ إنَّ فرارَهم سوءُ ظَنٍّ مِنْهُم بِسلطانِ اللهِ، فالإنسانُ لا يَمْلِكُ مع أمرِ اللهِ شَيْئًا[1]، ولا يجد هؤلاء المنافقون - إن أرادَ اللهُ بهم سوءًا في أنفسهم وأموالهم - مِن دونِ اللهِ وليًّا يليهم بالكفايةِ، ولا نَصيرًا ينصرُهم مِنَ اللهِ، فيدفعُ عنهُم ما أرادَ اللهُ بهم[2]؛ لأنَّ قُدْرَةَ اللهِ وإرادَتَهُ مُحيطَةٌ بالمَخْلوقاتِ، فَمَتى شاءَ؛ عَطَّلَ تأثيرَ الأسْبابِ، أوْ عَرْقَلَها بالمَوانِعِ، فَإنْ يَشَأْ شَرًّا؛ حَرَمَ الانْتِفاعَ بالأسْبابِ أوِ الاتِّقاءَ بالمَوانِعِ، فَرُبَّما أتَتِ الرَّزايا مِن وُجوهِ الفَوائِدِ، ومَتى شاءَ خَيْرًا خاصًّا بأحَدٍ؛ لَطَفَ لَهُ بتَمْهيدِ الأسْبابِ وتَيْسيرِها حَتّى يُلاقيَ مِنَ التَّيْسيرِ ما لَمْ يَكُنْ مُتَرَقَّبًا، ومَتى لَمْ تَتَعَلَّقْ مَشيئَتُهُ بخُصوصٍ؛ أرْسَلَ الأحْوالَ في مَهْيَعِها، وخَلّى بَيْنَ النّاسِ وبَيْنَ ما سَبَّبَهُ في أحْوالِ الكائِناتِ، فَنالَ كُلُّ أحَدٍ نَصيبًا عَلى حَسَبِ فِطْنَتِهِ ومَقْدِرَتِهِ واهْتِدائِهِ، فَإنَّ اللهَ أوْدَعَ في النُّفوسِ مَراتِبَ التَّفْكيرِ والتَّقْديرِ، فَأنْتُمْ إذا عَصَيْتُمُ اللهَ ورَسولَهُ، وخَذَلْتُمُ المُؤْمِنينَ؛ تَتَعَرَّضونَ لإرادَتِهِ بِكُمُ السّوءَ، فَلا عاصِمَ لَكم مِن مُرادِهِ[3].

لا مَلْجَأ لأحدٍ من اللهِ إلّا إليْه، ولا مهربَ منه إلّا إليه

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ الآيةِ عَمّا قَبْلَها:

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بمنزلة التَّعليل والبيان لجملة: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وذلك لأنَّ هذهِ الآيةَ اشْتَمَلَتْ على جوابٍ عن مكابرةٍ ضِمْنيَّةٍ، فقد كانَ هؤلاءِ الفارّونَ من ساحةِ القتالِ جَديرينَ بأنْ يَقولوا عن الآيةِ السابقةِ الَّتي نفت نفْعَ الفرارِ: بَلى يَنْفَعُنا الفرارُ، وفي الآيةِ "توكيدٌ للأمرِ الواردِ في قولِه سبحانه: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ﴾؛ فإنَّ نَفيَ العِصْمَةِ من اللهِ - إنْ أرادَ خيرًا أو

تعليلُ الكلامِ السّابقِ وبيانه من علل الفصل

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 11/ 669.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 49.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 292.

شَرًّا - تأكيدٌ لنَفْيِ نفعِ الفرارِ، والثاني أوكدُ في الدِّلالةِ على المَعنَى، وهوَ نَفْيُ نفعِ الفرارِ"[1].

فائدةُ تَكْرارِ فعل ﴿قُلْ﴾:

التَّلقينُ الإلهيُّ من أساليب تعليم الإرشاد والتَّوجيه

كرَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ فعلَ الأمرِ ﴿قُلْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ للاهْتِمامِ بمَضْمونِ الجُمْلَة[2]، وهوَ تقريرُ العصْمَةِ للّه وحدَه دون غيرِه من الأَسبابِ الَّتي يَظُنُّها النّاكثونَ عاصِمَةً لهُم مِنْ أمْرِه سبحانَه، وفي هذا التكريرِ إرادَةُ التَّوكيدِ، وبيانُ أثرِ تقريراتِ الوحي في تلقين النَّبيِّ ﷺ ما يجب أن يقوله للنّاكثين.

غرضُ فعلِ الأمْرِ:

وجوبُ الصَّدْعِ بالحقِّ وفَضْحِ الخائنينَ

في فعلِ الأمرِ ﴿قُلْ﴾ إشارةٌ إلى وجوبِ الصَّدْعِ بالجوابِ جَهارًا في وجوهِ النّاكثينَ الخائنينَ للعهدِ خاصَّةً في ساعاتِ الشِّدَّةِ والحربِ، وفي التصريحِ بالفعلِ كَذلكَ إشارةٌ بيِّنَةٌ لأهمّيَّةِ بيانِ أصولِ الاعتقادِ السليمِ في قدرةِ اللّهِ وعظيمِ سلطانِه على مقاديرِ الكونِ عامَّةً، والبشرِ خاصَّةً.

دلالةُ الاستفهامِ:

لا حيلةَ مع الأقدارِ ولا فرارَ مِن الموتِ

الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ للإنْكارِ، والمرادُ مَعْنَى النَّفْيِ لاعْتِقادِهِمْ أنَّ الحيلَةَ عَلى رَسولِ اللّه ﷺ تَنْفَعُهم، وأنَّ الفرارَ يَعْصِمُهم مِنَ المَوْتِ[3]، وفي استعمالِ ﴿مَن﴾ تَفْخيمٌ لشأنِ المُستَفْهَمِ عَنه، وهوَ العاصمُ مِنْ كُلِّ محنةٍ، فأفادتِ انتفاءَ العاصمِ سِواه سبحانَه بطريقِ المبالغةِ ذاتًا وصِفَةً، وفي هذا الاستفْهامِ الإنكاريِّ تنبيهٌ على أنَّ الأمْرَ كُلَّه للّه، وترغيبٌ في حسنِ الالتجاءِ إلَيه، وحسنِ التَّوَكُّلِ علَيْه، وفيه كذلكَ حثٌّ على خوضِ غِمارِ المعاركِ في سبيلِ إعلاءِ دينِه دونَ وجَلٍ أو خَوْفٍ، ودونَ نَكْثٍ أو فرارٍ.

(1) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 124.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 292.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 292.

نكتةُ النَّفْيِ بأداةِ الاستفْهامِ:

جاء النَّفي بأداة الاستفهام في قولِه تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ دونَ استعمالِ أداةٍ مِنْ أداوتِ النَّفْي؛ وذلكَ لأنَّ النَّفْيَ بالاستفهامِ أبلغُ مِنَ النَّفْيِ المُجَرَّدِ؛ وذلك أنَّ الاستِفْهامَ الإنكاريَّ يَحْمِلُ في طيّاتِه نَفْيَ الأمرِ في ذاتِه، فضلًا عنْ معنَى التَّعَجُّبِ منْ هذا الاعتقادِ الخبيثِ، وهوَ الظَّنُّ أنَّ ثَمَّةَ عاصمًا غيرَ اللهِ سبحانَه، فأفادَ معنَى النَّفْي وزيادة، "ففي الاسْتِفْهامِ كأنَّكَ تَطْلُبُ مِنَ المُخاطَبِ أنْ يبحَثَ عمَّن يعصِمُهُ مِنَ اللهِ، فإذا ما جدَّ، واجتهدَ، ولمْ يَجِدْ عاصِمًا؛ أيقن بالنَّفْي، وهذا أبلغُ"[1].

النَّفْيُ بالاستفهامِ الاستِنْكاريِّ دعوةٌ للتَّفكُّرِ والبحثِ عن الجواب

فائدةُ حذفِ هاء التَّنبيه من ﴿ذَا﴾:

عبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ باستعمالِ اسمِ الإشارةِ ﴿ذَا﴾ مُجرَّدًا منْ (ها) التَّي تفيدُ التَّنبيهَ، وذلك لإرادةِ الإيجازِ في اللفظِ على نمطٍ مِنَ البلاغَةِ العاليةِ، فضلًا عنْ أنَّ هذا الموضعَ ليس موضعَ تنبيهٍ بعدَ غفلةٍ؛ إذِ الكلامُ مسوقٌ لهُمْ في هذهِ الآيةِ والآيةِ السابقةِ عليْها، فجرَى البيانُ القرآنيُّ على سننِ الإيجازِ والاختصارِ.

الإيجازُ في اللفظِ في موضعِهِ نمطٌ مِنَ البلاغَةِ العاليةِ

بلاغةُ استعمالِ الاسْمِ المَوْصولِ:

أفادَ استعمالُ اسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾ في قولِه سبحانَه: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ تفخيمَ شأنِ المُستَفْهَمِ عَنْهُ العاصمِ منْ كُلِّ محنةٍ، ومعنَى الفخامَةِ: أنَّ هذا العملَ العظيمَ مِنْ شَأْنِه أنْ يَكونَ فاعِلُه عظيمًا، ولذا فَلا يَتَّصِفُ به سوى اللهِ سبحانَه، فلم يقل: (مَنْ يَعْصِمُكُم)، ولكنْ ما جاءَ عليه النَّظْمُ القرآنيُّ (بلغَ) مِنَ البَلاغَةِ ذروتَها، فَشَتّانَ ما بين قولِهِ سبحانَه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم﴾ وبين (مَنْ يَعْصِمُكُم)؛ لِما فيه مِن

تفخيمُ شأنِ العاصمِ سُبحانَه والإشارةُ إلى عُلوِّ شأنِه

(1) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 124.

التَّفْخيمِ والرِّفْعَةِ والإشارةِ إلى عُلوِّ شَأْنِه سبحانَه على سائر ما يَظُنّونَه عاصِمًا[1].

فائدةُ التَّعْبيرِ بالمُضارِعِ:

عبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ باستعمالِ الفعلِ المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ وذلك لإفادةِ نفْيِ دَيْمومَةِ العصمةِ على الدّاوم عن أحدٍ سوى اللّه تعالى.

بلاغةُ الإضمارِ دون الإظهار:

المخاطَبونَ في هذا السياقِ هُم المنافقونَ دونَ غيرِهم

لمّا كانَ البيانُ القرآنيُّ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مستمرًّا في توجيهِ الخطابِ للمنافقينَ؛ آثرَ التَّعبيرَ بضميرِ الخطابِ دون التَّصْريحِ بصفةِ المخاطَبينَ، وهم (المنافقون)، وذلك لاتِّصالِ الخطابِ، وهو مقتضى الظّاهر، فكُلُّ ما تشيرُ إليه هذه الآيةُ والآياتُ السابقة إنَّما قُصِدَ به المنافقونَ حصرًا دونَ غيرِهم، مع ما فيه مِن المواجهةِ المستمرَّة، التي تقتضي إدخالهم في مضمون خطاب اللَّوم والتَّوبيخ.

نوعُ ﴿مِّنَ﴾ ودلالتُها:

حرفُ ﴿مِّنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ للابتداءِ، أي: ابتداء مِن قدر اللّه تعالى، والعِصْمَةُ هي من قَدَرِ اللّهِ تعالى بالموتِ أو القتلِ حسبما يَظُنّون.

فائدةُ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ الجَلالَةِ:

لفظ الجلالةِ يورث المهابة، ويُنزل الطُّمأنينة في قلوبِ المؤمنين

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ باسم الجلالةِ الأعظم ﴿ٱللَّهِ﴾؛ إشارةً إلى ذاتِهِ العَليَّةِ المُحيطة بِكُلِّ شَيْءٍ قُدْرَةً وعِلْمًا، قَبْلَ الفرارِ وفي حالِ الفرارِ وبَعْدَهُ[2]، فهوَ الاسمُ الأنسبُ الذي يورث الهيبة والجلال في هذا

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/ 132.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 312.

المقام العظيم، الذي لا يكون لأحدٍ إلّا له سبحانه، لِبيانِ خطأِ ما وقعَ فيهِ هؤلاءِ الناكثونَ الفارّون من خلطٍ واضطرابٍ في أُصولِ الاعتقادِ، بظَنِّهِم الكاسدِ أنَّ الفرارَ مُنْجيهم من قدرِ اللّهِ سبحانَه، فكانَ ذِكْرُ الاسمِ الأعظمِ تذكيرًا بليغًا بعظَمَتِهِ واتِّساعِ سُلطانِه وقدرتِه عليهم في كُلِّ حالٍ.

دلالةُ استعمالِ ﴿إِنْ﴾:

قيمُ الهدايةِ مبثوثةٌ في بساتين النَّظم المعجز

استُعملت أداة ﴿إِنْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾؛ وذلكَ لأنَّ ﴿إِنْ﴾ إنَّما تُسْتَعْمَلُ لغيرِ المقطوعِ بوقوعِه؛ إذْ إنَّ وقوعَ السوءِ على المنافقينَ أمرٌ غيرُ مقطوعٍ بِهِ في سياقِ سورةِ الأحزابِ، الَّتي أفسحتْ مجالًا واسعًا لتوبتِهم ورجوعِهم إلى حَظيرةِ الحقِّ، وذلكَ لترغيبِ المنافقينَ في العدولِ عن هذا الموقفِ المجزي، وقدِ اتَّضحَ ذلكَ الترغيبُ في قولِه تعالى من السورة نفسها: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [الأحزاب: 24]، فَخَتَمَ الآيةَ بصفاتِ الرحمةِ، وهي كونُه سبحانَه: ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [الأحزاب: 24]، وليسَ بصفاتِ العذابِ كقولِه في آلِ فرعونَ ومنْ سَبَقَهُم من المكذِّبينَ الضالّينَ: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾ [آل عمران: 11]، وفي ذلكَ إشارةٌ بيِّنةٌ لفتحِ بابِ الأوبةِ لهؤلاءِ المنافقينَ، ولذا كانَ التَّعبيرُ بـ﴿إِنْ﴾ أنسبَ للسياقِ ولمقاصدِ السورةِ الكريمةِ.

نكتةُ التَّعْبيرِ بفعلِ الإرادةِ:

الإرادةُ تَكونُ لِما يَتَراخَى وقْتُهُ، ولِما لا يَتَراخَى، والمَشيئَةُ لِما لَمْ يَتَراخَ وقْتُه

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردةِ الإرادةِ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ دونَ المشيئةِ؛ وذلك لأنَّ الإرادةَ تَكونُ لِما يَتَراخَى وقْتُهُ، ولِما لا يَتَراخَى، والمَشيئَةُ لِما لا يتراخى وقْتُه، والشّاهدُ أنَّكَ تَقولُ: فعلتُ كَذا، شاءَ أو أبَى، فيقابل بها إباه، وذَلِكَ يكون عِنْد محاولة الفِعْل

وكَذَلِكَ المَشيئَةُ إنَّما تكونُ بَدَلًا من ذَلِكَ في حاله[1]، والسياقُ في سورةِ الأحزابِ عامَّةً، وفي هذِه الآيةِ خاصةً يفيدُ التراخي والإمهالَ في عقابِ المنافقينَ، ويفسحُ لهُم الطريقَ واسعًا رغبةً في أوْبَتِهم ورجوعِهم للحقِّ؛ ليكونوا عدَّةً للإسلامِ في الدُّنيا، وليكونوا من أهلِ النَّجاةِ في الآخرةِ.

فائدةُ التَّعْبيرِ بِالماضي:

الحضُّ على المسارعةِ إلى الهدايةِ والفرار من الضلالة

جاء التَّعبير بصيغة الماضي لفعل الإرادة في قولِه تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾؛ للدلالةِ على إحاطةِ علمِ اللهِ الأزَليِّ بكلِّ شيءٍ سَيقعُ في مُلْكِه، فهوَ قد انتهَى، وتَحَقَّقَ في عِلْمِه سبحانَه، ولَمّا كانَ صنيعُهُم يوحي بشَكِّهم في عِلْمِ اللهِ وقُدْرَتِه؛ كانَ التَّعبيرُ بصيغةِ المُضيِّ تذكيرًا لَهُم بإحاطَتِه سبحانَه بكلِّ شيءٍ، أي: إن أراد بكم السّوء، أو أراد الرَّحمة، فإنَّ أحدَ الأمرين متحقِّقٌ - لا محالةَ - ففيه حثٌّ على المسارعة إلى الهدايةِ.

نوعُ الباءِ ودَلالتُها:

إرادةُ الله محيطةٌ بالمنافقين نافذةٌ فيهم

حرفُ الباءِ في قولِه تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ للإلصاقِ، فأفادتِ الباءُ إحاطةَ الإرادةِ الإلهيةِ بِهِم على أيِّ حالٍ منْ حالَي السوءِ أو الرَّحْمَةِ، فهيَ محيطةٌ بِهِم لا ينْفَكّون عنَها، مُلْتَصِقَةٌ بِهِم، على نقيضِ تَصَوُّرِهِم الفاسدِ بِظَنِّهِم الخروجَ عن إرادتِه سبحانَه.

دَلالَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ:

الإيماءُ إلى العنايةِ بالمخاطَبين ترغيبًا وترهيبًا

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ الجارَّ والمجرورَ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾، فلم يقل: (إنْ أرادَ سوءًا بِكُم)؛ للاهتمام، إذِ المقصودُ الأوَّلُ بيانُ لُصوقِ الإرادةِ الإلهيَّةِ بِهِم متى

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 124.

أرادُ اللّهُ تعالى ذلكَ، ففيه لفتٌ إلى أنَّهم موضع الإرادة، ومحلُّ الحكمة، فهو جامعٌ للترغيب والترهيب.

نكتةُ تَقْديمِ جَوابِ الشَّرطِ على فِعْلِه:

إظهارُ المقصدِ الأساسِ للسّياقِ في إثباتِ العصمةِ للهِ وحدَه

عندَ مَنْ يرى جوازَ تقديمِ جوابِ الشَّرطِ على فعلِه، فإنَّ جوابَ الشَّرْطِ مقدَّمٌ في قولِه تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾؛ إذ الأصل: (إنْ أرادَ اللّهُ بِكُمْ سوءًا، أوْ أرادَ بِكُمْ رَحْمَةً؛ فمَنْ ذا الَّذي يَعْصِمُكُم مِنْهُ)، ونكتةُ تقديمِ الجوابِ على شرْطِه الاهتمامُ بِهِ، لِتَضَمُّنِ الجَوابِ معنَى الإتيانِ بالدَّليلِ الفِعْليِّ على شرْطِهِ المُتَضَمِّنِ معنَى الادِّعاءِ، والدَّليلُ الواقعيُّ أهمُّ من الدَّليلِ القوليِّ[1]، فلَمّا كانَ إثباتُ العصمةِ للّهِ وحدَه، ونفْيُها عنْ أيِّ أحدٍ سواه، هوَ المقصد الأساس للآية الكريمةِ؛ قدَّمَ الجوابَ على شرطه.

غرضُ تنكير لفظ ﴿سُوٓءًا﴾:

اشتمالُ اللَّفظِ على جميعِ أنواعِ السّوءِ المتوقَّعة

جاءتْ كلمةُ ﴿سُوٓءًا﴾ نكرةً للدِّلالةِ على العمومِ، فيشمل كلَّ ما يتوقَّعه الذِّهنُ من السّوءِ، فقد يصيبُهم السوءُ بالموتِ أو القتلِ في خاصَّةِ أنفُسِهم الَّتي فَرّوا من ساحةِ المعركةِ نجاةً بها، وقدْ يصيبُهم السوءُ في أبدانِهم بالجرحِ، أو في أحوالِهم النَّفْسيَّة، أو غَيرِ ذَلكَ ممّا قدْ يَحُلُّ بِهم من صُروفِ السّوءِ وضروبِ المَكروهِ.

دَلالَةُ تكرارِ الفِعلِ ﴿أَرَادَ﴾:

عندَ اختلافِ الأسبابِ والأحكامِ تختلفُ أنواعُ الإرادةِ

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ كرَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ الفعلَ ﴿أَرَادَ﴾؛ لاختلافِ مضمونِ الإرادةِ في الأمرينِ؛ إذ الإرادةُ الأولَى بالسوءِ، والأخرى بالرحمةِ، فكرَّر الفعلَ للمغايرةِ بين المَعْنَيَيْنِ، وفيه حثٌّ على الإقبالِ بعد الإدبارِ، والإيمانِ بعد الضَّلالِ، فعند اختلافِ الأسبابِ والأحكامِ تختلفُ أنواعُ الإرادةِ.

(1) عبد الجبار زيدان، تقديم الجواب على شرطه في النحو العربي، ص: 16.

بلاغةُ المُقابَلَةِ والاحتباك:

إرادةُ اللهِ سبحانَه محيطةٌ بكلِّ خلقِه لاحقَةٌ بِهِم في كُلِّ أحوالِهم

قابلَ النَّظْمُ الحكيمُ بَيْنَ لفظَي السوءِ والرَّحمةِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾؛ وذلك لبيانِ أنَّ إرادةَ اللهِ سبحانَه لاحقَةٌ بهم؛ إنْ أرادَ بهم سوءًا؛ فَأناخَ بهم نِقمَهُ، أو إنْ أرادَ بهم رَحْمَةً؛ فَأفادَهم نِعَمَهُ، والمراد بهذه المقابلة، أي: قيسوا هَذا المَعْنى عَلى مَقاييسِ عُقولِكم مُعْتَبِرينَ لَهُ بِما وجَدْتُمْ مِنَ الشِّقَّيْنِ في جَميعِ أعْمارِكُمْ، هَلِ احْتَرَزْتُمْ عَنْ سوءِ إرادَةٍ، فَنَفَعَكُمُ الاحْتِرازُ، أوِ اجْتَهَدَ غَيْرُهُ في مَنعِكم رَحْمَةً مِنهُ، فَتَمَّ لَهُ أمْرُهُ، أوْ أوْقَعَ اللهُ بِكم شَيْئًا مِن ذَلِكَ، فَقَدَرَ أحَدٌ مَعَ بَذْلِ الجُهْدِ عَلى كَشْفِهِ؟[1].

ويمكن أن تكون هذه المقابلة من الاحتباك؛ إذ ذِكرُ السوء أوَّلًا دليلٌ على حذف ضدِّه ثانيًا، وذِكرُ الرحمة ثانيًا دليلٌ على حذْفِ ضدِّها أوَّلًا، فيجمع بذلك بين معانٍ كثيرة في ألفاظ وجيزة، بما يوقع في النَّفس المعنى المراد من السياق ترغيبًا وترهيبًا أتمَّ الوقوع.

علَّةُ تَقْديمِ ذكرِ السّوءِ عَلَى الرَّحْمةِ:

تقديمُ ذِكرِ العقوبةِ هو الأليقُ بطالبي الفرارِ من الكرامة

قُدِّمَ ذِكرُ لفظِ السّوء على الرَّحمة في قولِه تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾؛ وذلك لأنَّ هؤلاءِ الفارّين من ساحةِ المعركةِ، إن عامَلَهُم اللهُ بِعَدْلِه؛ فلن يُجازيَهُم إلّا بالسّوءِ والعِقابِ؛ لأنَّ المقامَ مقامُ تهديدٍ، ولكنَّه سبحانَه فتحَ لَهُم بابَ الرجاءِ والأوبةِ بِذِكْرِ الرَّحمَةِ بعده؛ ترغيبًا لهم بالتوبة والرجوع، بعد الترهيب والتخويف بسوء المآل إن استمروا على فِعلهم الشنيع.

نوعُ الواوِ ودلالتها:

مَن فقدَ العاصمَ؛ فقدْ فقدَ الوليَّ والنَّصير

عَطَفَتِ الواوُ قولَ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ على قولِه سبحانه: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾، فوصلتْ بينَ الجملتين، فكانتْ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 312.

هذه الجملةُ عطفًا عَلى جُمْلَةِ: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم﴾، وتحتمل الواو أن تكون مُعْتَرِضَةً بَيْنَ أجْزاءِ القَوْلِ، والتَّقْديرانِ مُتَقارِبانِ؛ لِأنَّ الواوَ الاعْتِراضيَّةَ تَرْجِعُ إلى العاطِفَةِ، والكَلامُ مُوَجَّهٌ إلى النَّبي ﷺ، ولَيْسَ هو مِن قَبيلِ الالتِفاتِ، والمَقْصودُ لازِمُ الخَبَرِ، وهو إعْلامُ النَّبيِّ ﷺ بِبُطْلانِ تَخَيُّلاتِهِمْ، وأنَّهم لا يَجِدونَ نَصيرًا غَيْرَ اللّه، وقَدْ حَرَمَهُمُ اللّه النَّصْرَ؛ لِأنَّهم لَمْ يَعْقِدوا ضَمائِرَهم عَلى نَصْرِ دينِهِ ورَسولِهِ[1]، فالجملةُ إذًا معطوفَةٌ على الإنشاءِ السابقِ من الاستفهامِ بحسب المعنَى، ووَجْهُ المناسبةِ أنَّ هذه تنفي الوليَّ والنَّصيرَ لهؤلاء، والَّتي قبلها تنفي أنْ يكونَ لَهُم عاصمٌ يَمْنَعُهُم منَ اللّهِ[2].

نكتةُ النَّفْيِ بِأداةِ (لا) دونَ (لنْ):

نفيُ الولايةِ والنُّصرةِ من دون اللهِ حالًا واستقبالًا

آثرَ النظم الكريم استعمال أداة النفي (لا) في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ دون (لن)، رُغْمَ تقاربِ عَمَلِهما حتى إنَّ كثيرًا من النُّحاةِ قدْ ساووا بينهما في الدِّلالةِ، وذلك أنَّ (لا) تَنْفي الحالَ والمُستقْبَلَ معًا، و(لَنْ) تَنْفي المُسْتَقْبَلَ فقطْ، كما أنَّ (لا) - عند كثير من النُّحاةِ - تَكونُ لِنَفْيِ ما طالَ وبَعُدَ، و(لنْ) تكونُ لِنَفي ما قَصُرَ وقَرُبَ، فَلا يَمْتَدُّ النَّفْيُ بِها امْتِدادَهُ في (لا)، والسِّرُّ في ذَلِكَ أنَّ الألفاظَ مُشاكلةٌ للمَعاني، و(لا) آخِرُها الألِفُ، والألِفُ يَكُمُنُ امتدادُ الصوتِ بِها، بخلافِ النّونِ، فطابَقَ كُلُّ لَفْظٍ مَعْناه[3]، وما جاء عليه النَّظْمُ هو الأنسب بالسّياقِ؛ لأنَّ المرادَ نَفْيُ الوَلِيِّ والنّاصرِ من دونِ اللّهِ حالًا واستقبالًا، أي: في تلك اللحظاتِ العصيبةِ الَّتي أحدقَ فيها المشركونَ واليهودُ بالمدينةِ - على ساكنِها أفضلُ الصلاةُ والتَّسْليم - فَلَن يأمنَ المنافقونَ غَدْرَهُم إن ظَفَروا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 293.
(2) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 125.
(3) السهيلي، نتائج الفكر، ص: 100، والسيوطي، همع الهوامع: 2/ 366، وفاضل السامرائي، معاني النحو: 3/ 360.

بالمسلمينَ، ولنْ يَجِدوا ناصرًا أو وليًّا في المستقبلِ كذلك، فكانَ النَّفْيُ بـ(لا) أنسبَ للسياقِ، وأدقَّ في المعنَى.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِالمُضارِعِ:

المنافقُ متروكٌ غيرُ موصولٍ بأسبابِ الولايةِ والنُّصرة

جاء التَّعبير بصيغةِ المضارعِ في قولِه ﷻ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، وذلكَ لإفادةِ نَفْيِ وجودِ الوليِّ والنَّصيرِ في كلِّ وقتٍ، وللتَّعبيرِ عنِ استمرارِ حَيْرَتِهم وهَوانِهم على اللهِ، فأينما بحثوا عن وليٍّ يتولّى نفعهم؛ لم يجدوا، وأينما طرقوا باب ناصرٍ ينصرهم؛ ما وجدوا إلّا الخزي والهوان.

سِرُّ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ:

مدارُ المصلحةِ الكبرى لكلِّ عاقلٍ في التزامِ شرعِ الله تعالى

قُدِّم ذِكرُ الجارِّ والمجرور في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، فلم يقل: (ولا يجدونَ وليًّا من دون اللّه لَهُم) للاهتمام؛ إذ المقصودُ الأوَّلُ بيانُ فَقْدِهم لوليٍّ أو نصيرٍ يكونُ لَهُم عاصِمًا من بَأسِ اللهِ وقَدَرِه بِهِم، وذلك أنَّ المنافقين كان يعنيهم من أمرِ الفرارِ أن يجدوا لأنفسِهم وليًّا أو نصيرًا، فهم يبحثون عن نجاتِهم بالدَّرجةِ الأولى، فكان نفيُ ذلك عنهم بصورةٍ مباشرةٍ بتقديم ﴿لَهُم﴾ هو الأولى بالمقامِ، لما فيهِ من الإيماءِ إلى مدى اعتنائهم بأنفسِهم، وأنَّهم لن يصلوا إلى نفعِ أنفسِهم مهما جرَّبوا من سبيلٍ من دون سبيل اللّه تعالى.

نوعُ ﴿مِّن﴾ ودلالتُها:

حرفُ ﴿مِّن﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ لابتداءِ الغاية، أي: لا يجدون وليًّا ولا ناصرًا ابتداءً من دون اللّه تعالى؛ فَلا عاصمَ سِواه، ولا ناصِرَ غيرُه.

بلاغةُ تقييدِ الفعلِ:

كلُّ وليٍّ ونصيرٍ غير الله فدونٌ حقير

آثر النَّظم الكريم ذِكرَ قيد: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لفعل: ﴿يَجِدُونَ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ دون

أن يقول: (ولا يجدون لهم وليًّا ولا نصيرًا)؛ لبيانِ أنَّ أيَّ ولايَةٍ أو نُصْرَةٍ مِن دون اللهِ حقيرةٌ صغيرةٌ مُهانَةٌ؛ وذلكَ أنَّ ﴿دُونِ﴾ ظَرْفُ مكانٍ، يُعَبَّرُ به عن المَنْزِلَةِ الدَّنيَّةِ[1]، وهوَ نقيضُ (فوقَ)، وهوَ تَقْصيرٌ عَنِ الغايَةِ، والدّونُ: الحَقيرُ الخَسيسُ[2]، فالمادَّةُ تدور حولَ عدمِ الرِّفْعَةِ وهبوطِ المكانَةِ، وفي ذلكَ ذمٌّ لكُلِّ ولايَةٍ أو نُصْرَةٍ مِنْ دونِ اللهِ سبحانَه.

دَلالةُ التَّصْريحِ بِلفْظِ الجلالةِ:

التَّعبيرُ بالاسمِ العَلَمِ إشارَةٌ إلى إحاطَتِهِ بِكُلِّ وصْفٍ جَميلٍ

آثر النَّظمُ التَّصْريحَ بلفْظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ دونَ أن يقول: (منْ دونِه)، وهو مقتضى الظاهر لتقدُّم ذِكر لفظ الجلالةِ؛ لأنَّ اللهَ وحدَه هوَ النّاصِرُ والوَليُّ حقيقةً، فجاءَ التَّصْريحُ بالاسمِ الأعظمِ تذكيرًا بهذه الحقيقةِ الخالِدَةِ، كَيْ يتنَبَّه هؤلاءِ النّاكثونَ الفارّونَ إلى سوءِ ظنِّهم باللهِ سبحانَه إذا كان في الآيةِ التفاتٌ، وأمّا إنْ كانَ الحديثُ موجَّهًا لرسولِ الله ﷺ - كما أشارَ ابن عاشور[3] - فإنَّ التصريحَ بلفظِ الجلالةِ تسليةٌ لرسولِ اللهِ، وتثبيتٌ لقلبِه الكريمِ، وكذلكَ فإنَّ في التَّعبيرِ بالاسْمِ العَلَمِ إشارَةً إلى إحاطَتِهِ بِكُلِّ وصْفٍ جَميلٍ، فَمِن أيْنَ يَكونُ لِغَيْرِهِ الإلْمامُ بِشَيْءٍ مِنها إلّا بِإذْنِهِ سبحانه[4].

نكتةُ استعمالِ مفردة ﴿وَلِيًّا﴾:

كثرةُ المعاني التي يحتملها لفظُ وليٍّ تنفي كلَّ وليٍّ

أفادَ استعمالُ مفردةِ ﴿وَلِيًّا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ الدِّلالةَ على عمومِ معنى الولايةِ؛ إذِ الوَلاءُ والتَّوالي أن يَحْصُلَ شيئانِ فَصاعَدًا حُصولًا لَيْسَ بيْنَهُما ما لَيْسَ مِنْهُما، ويُسْتَعارُ ذلكَ للقُربِ مِنْ حيثُ المكانُ، ومِنْ حَيثُ النِّسْبَةُ،

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (دون).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (دون).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 293.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 313.

ومِنْ حيثُ الدّينُ، ومِنْ حيثُ الصَّداقَةُ والنُّصرَةُ والاعتقادُ[1]، ففي التعبيرِ بالوَليِّ من كثافةِ المعاني ما ليسَ في غيرِه من الألفاظِ، ولذلكَ آثَرَ البيانُ القرآنيُّ هذا اللفْظَ لبيانِ شدَّةِ خسرانِ المنافقينَ الفارّينَ من ساحةِ الجهادِ معَ رسولِ اللّهِ ﷺ والمُؤْمِنينَ.

نكتةُ اقترانِ الوليِّ والنَّصيرِ:

نـصـرُ اللـهِ لِـعـبـاده هـو حسنُ مَعونَتهم وتَمْكينهم مِنَ الظَّفَرِ بأعدائِهم

جَمَعَ النَّظْمُ الحكيمُ بينَ نَفْيِ الولايةِ ونَفْيِ النُّصْرَةِ في قولِه ﷻ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾؛ وذلكَ لقطعِ الأطْماعِ في الانتفاعِ بالولايَةِ أو النُّصْرَةِ كِلَيْهِما مُجْتَمِعَتينِ أو مُنْفَرِدَتينِ مِنْ غيرِ اللّهِ تعالى، حتَّى يَتَرَسَّخَ في عقولِ المسلمينَ عامَّةً - إن كان الخطابُ للرسولِ ﷺ - والناسِ كافَّةً - إن كان الخطابُ للمنافقينَ - أنَّه لا سبيلَ إلى أيِّ شَكْلٍ من أشكالِ العونِ أو النَّصرِ إلّا مِنْ عِنْدِ اللّهِ؛ إذْ إنَّ نُصْرَةَ اللّهِ لِعبادِه هيَ حسنُ المَعونَةِ والتأييدِ والحفظِ، وتَمْكينِهم مِنَ الظَّفَرِ بأعدائِهم.

بَلاغةُ الاحتراسِ في لفظِ النَّصيرِ:

بـذهـابِ الـوليِّ والنَّصيرِ يتكاملُ عجزُ المنافقينَ

عَطَفَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِه ﷻ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ على ذِكْرِ الوَليِّ بذِكْرِ النَّصيرِ لإفادةِ الاحْتراسِ، فالوَليُّ قَدْ يَضْعُفُ عنِ النُّصْرَةِ، والنَّصيرُ قدْ يكونُ أجْنَبيًّا مِنَ المنصورِ، فَلِحُصولِ التَّكامُلِ بينَ ولايَةِ الوَليِّ ونُصْرَةِ النَّصيرِ عَطَفَ الواحِدَ على الآخَرِ؛ لأنَّ نَفْيَ الوَليِّ لا يَقْتَضي نَفْيَ كُلِّ نَصيرٍ؛ إذْ قدْ لا يَكونُ لِأحَدٍ وليٌّ لِكَوْنِهِ دَخيلًا في قَبيلَةٍ، ويَكونُ أنْصارُهُ مِنْ جيرَتِهِ[2]، فكَمَنَتْ بَلاغَةُ الاحتراسِ في اكْتِمالِ المعاني ونَفْيِ أيِّ ظَنٍّ يَرِدُ على الأذْهانِ في نُصْرَةِ أحدٍ مِنْ دونِ اللّهِ ﷻ.

(1) الراغب، مفردات القرآن: (ولي).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 695.

دلالةُ التَّعْبيرِ بصيغة فعيل:

لفظُ نصيرٍ أوسعُ دلالـةً مِـنْ لفظ ناصرٍ وأبلغُ منه

آثَرَ النظمُ الكريم التعبيرَ بصيغة (فعيل) دون (فاعل) في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾؛ وذلك لأنَّ ما تُضفيه صيغة (فعيل) أوسعُ مِنْ حيثُ إنَّ فَعيلًا مِنْ أبْنيَةِ المُبالَغَةِ، فَيُعْطي كثرةً[1] في المعنَى المرادِ، ولمّا كان القومُ في موقفٍ شديدٍ عصيبٍ؛ فإنَّهُم أحوجُ ما يكونون للنَّصير بما فيه من معاني المُبالَغَةِ في النُّصرَةِ دونَ الناصرِ فحسب.

سِرُّ تَقْديمِ ذكرِ الوَليِّ على النَّصيرِ:

الـوليُّ أقـربُ مِنَ النَّصيرِ وأسْهَلُ منالًا

قَدَّمَ النَّظْمُ الحكيمُ ذِكْرَ الوَليِّ على النَّصيرِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ لأمرينِ اثنين: **الأوَّلُ:** القُرْبُ؛ إذِ الوَليُّ أقربُ مِنَ النَّصيرِ؛ إذْ به تقومُ الأمورُ والأحوالُ، ثُمَّ يكونُ النَّصيرُ في أحوالِ النُّصْرَةِ والتأييدِ في ساعاتِ الشِّدَّةِ والحربِ والعُسْرَةِ، **والآخر:** السُّهولَةُ؛ لأنَّ الرُّكْنَ الشَّديدَ الَّذي يُسْتَنَدُ إلَيْهِ: إمّا وليٌّ يَشْفَعُ، أوْ ناصِرٌ يَدْفَعُ، والأوَّلُ أسْهَلُ الطَّريقَين؛ فلذلكَ قَدَّمَ الوَليَّ على النَّصيرِ[2].

نُكْتَةُ تَنْكيرِ لفظَي ﴿وَلِيًّا﴾ و﴿نَصِيرًا﴾:

نـفـي الـولايـة والنُّصرة عن كُلِّ مدَّعيهما مِـنْ دونِ اللهِ

نُكِّرَ لفظا ﴿وَلِيًّا﴾ و﴿نَصِيرًا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، وذلكَ للدِّلالَةِ على العُمومِ مِنْ حيث اللَّفْظُ، والتَّحْقيرِ مِنْ حيثُ المعْنَى، فَكُلُّ وليٍّ أوْ نَصيرٍ اتُّخِذَ مِنْ دونِ اللهِ تعالى - بقطعِ النظرِ عن نعته ووسمه، وفي أيِّ زمانٍ كانَ - لا تَكْمُلُ وِلايَتُه، ولا تُسْتَكْمَلُ نُصْرَتُهُ لِمَنْ والاه، ونَصَرَه، بَلْ كُلُّ وِلايَةٍ أو نُصْرةٍ دونَ وِلايَةِ اللهِ ونُصْرَتِه ناقصةٌ غيرُ تامَّةٍ.

فائدةُ توسُّطِ (لا) بينَ المعطوفَين:

في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾،

(1) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 1/ 48.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 380.

توَسَّطَتْ (لا) بينَ المعْطوفَيْنِ لتأكيدِ النَّفْيِ، ولإقامةِ نفي وجدان النَّصير إقامةً مستقلَّةً عن نفي وجدان الوليِّ، فيتحقَّق نفيان.

بلاغةُ الالتِفاتِ:

إن لم ينفع الخطابُ في الإقناعِ ففي الإخبارِ رفعٌ للملام

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ اخْتَلَفَتْ صيغةُ النَّظْمِ، فجاءت بأسلوبِ الخطابِ في قولِه سُبحانَه: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾، ثُمَّ انتقلَ إلى أسلوبِ الغَيْبَةِ، عندَ مَنْ ذهَبَ إلى أنَّ الجملةَ خطابٌ للمنافقينَ، والسِّرُّ في ذَلِكَ هوَ حُضورُ هؤلاءِ المنافقينَ معَ المُؤْمنينَ في مَيدانِ القِتالِ، يَعيشونَ بِتِلْكَ الخَواطِرِ المَريضَةِ، والمَشاعِرِ الكاذِبَةِ، ويُديرونَ في كَيانِهِم وُجوهَ الأعْذارِ الَّتي يَعْتَذِرونَ بها للفِرارِ مِنْ هذا المَوْقِفِ، فَهَذا هوَ حالُهُم قَبْلَ أنْ يَفِرّوا؛ فَلَمّا اجْتَمَعَ لَهُمُ الرَّأْيُ عَلَى الفِرارِ، وفَرّوا؛ كانَ الحُكْمُ عليهم غيابيًّا في مواجَهَةِ المُؤْمِنينَ، فَلا يَسْتَمِعونَ هُمْ إلى هذا الحُكْمِ، ولا يَدْرونَ ماذا يُريدُ اللهُ بِهِم، حتَّى يفجَأهم العذابُ، وينزلَ بهم البلاءُ، وهُمْ في غَفْلةٍ عنه[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العصمة والمنعة:

العِصْمَة منعةٌ ووِقايةٌ وملازمةٌ للحِفْظِ

لَفظُ العِصْمَةِ يَدُلُّ عَلَى إمْساكٍ ومَنْعٍ ومُلازَمَةٍ[2]، والعِصْمَةُ الوِقايَةُ والمَنْعُ مِمّا يَكْرَهُهُ المَعْصومُ[3]، أمّا المَنْعُ؛ فهوَ تَحْجيرُ الشَّيْءِ والحَيْلولَةُ دونَ الوصولِ إلَيْهِ[4]، وقد آثرَ النَّظْمُ الحكيمُ التَّعبيرَ بالعِصْمَةِ؛ لأنَّ فيها معنًى زائدًا على المنعِ، وهوَ الوِقايةُ وملازمةُ الحفظِ، لما فيه من المبالغةِ في نفي فائدةِ الفرارِ.

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 11/ 671.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عصم).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 292.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (منع).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والأربعون،
سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والأربعون، سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2025.
مج. 44 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-97-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 44 : المجلد الرابع والأربعون، سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-97-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4197137 بتاريخ 2025/01/02م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»